

الأسس المنهجية في تفسير التراث اللغوي عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح

Methodological foundations in the interpretation of the linguistic heritage of Prof.

Abderrahmane HADJ SALAH

الحبيب نصيرة^{1*}، أد-لزهر كرشو²

¹ جامعة الوادي، (الجزائر)، tamimalmajd76@gmail.com

² جامعة الوادي، (الجزائر)، kerchou-lazhar@univ-eloued.dz

تاريخ النشر: 2023/12/30

تاريخ المراجعة: 2023/05/29

تاريخ الإيداع: 2022/12/09

ملخص: تقوم أبحاث الحاج صالح على تعريف الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي ومضامينه النوعية، انطلاقاً من مقولات اللسانيات الحديثة، وهذا يعني أنّ بحوثه اللغوية اتجهت إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربيّ الأصيل، وعليه تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن الأسس المنهجية التي تعامل بها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح مع التراث اللغوي العربي، من خلال الإجابة عن الإشكالية التالية كيف تعامل الأستاذ مع هذا التراث؟ وكيف زاوج بينه وبين اللسانيات الحديثة؟

الكلمات المفتاحية: الأسس المنهجية / تفسير / التراث اللغوي / عبد الرحمن الحاج صالح

Abstract:

The research of Hadj Salah Abderrahmane is characterised by introducing students to the characteristics of Arabic linguistics and its qualitative implications, based on the categories of modern linguistics, and this means that his linguistic research tended to re-read the original Arabic linguistic heritage. Hence, the study aims at answering the following questions, how did the researcher deal with this heritage? How did he marry it with modern linguistics?

Key words: Methodological foundations / interpretation / linguistic heritage / Abderrahmane HADJ SALAH

تقديم:

ظهرت لسانيات التراث كردة فعل قوية على أولئك المتعصبين للسانيات الغربية والذين يرون فيها كل الحق، فلسانيات التراث ذات مذهب توافقي يسعى إلى تحقيق نوع من الوصل بين التراث والحداثة، والمقصد من ذلك هو فتح المجال للاستفادة من كليهما، فتحافظ على تاريخنا من جهة وتفتح آفاقاً على الأعمال الحديثة من جهة أخرى، عن طريق الغوص في أعماق التراث اللغوي العربي ومد اليد نحو الغرب للاستفادة من علم اللسانيات الحديثة وفهمها، فعكف رواد هذا الاتجاه على قراءة التصورات العربية القديمة وتأويلها وفق المناهج البحثية الحديثة ومحاولة التوفيق بينهما لعل ذلك يبعث تراثنا اللغوي من تحت الرماد ويخرجه في حلة جديدة تعيد له بريقه التاريخي والحضاري.

* المؤلف المراسل.

وضع أصحاب هذا الاتجاه مناهج محددة للتعامل مع التراث واللسانيات الحديثة وفق ما تقتضيه الضرورة المعرفية ووفق مبدأ القراءة الانتقائية التي تحافظ على الطابع الأصلي للموروث اللغوي الأول، مع الاعتماد على جميع المناهج البحثية الحديثة، وحرصوا في ذلك على التقيّد بالمسؤولية التي تنتهي بنتائج تتوافق مع الفرضيات العلمية .

ولهذا جاء منهجهم واضحا وصارما في قراءة التراث، فلم يكن مهتما بالمقارنة بينه وبين اللسانيات الحديثة، ولم يكن همه إسقاط الثانية على الأولى ، فلا تعسف في تأويله ، ولا اعتباط في تفسيره . فجاءت أعمالهم تتسم بالاعتدال والوسطية، تقوم على اعتراف واضح بالقيمة المعرفية للتراث اللغوي العربي وللنظريات اللسانية الحديثة في الوقت ذاته ، ومن بين هذه الأعمال الرائدة نجد أعمال الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح .

تنطلق أبحاث الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح من تعريف الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية معتمدة في ذلك على نظريات و مقولات اللسانيات الحديثة، وقد أثبتت أعماله وأبحاثه أهمية قراءة التراث العربي الذي يمثّل مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغويّ عند العرب في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، وهذا يعني أنّ بحوثه اللغويّة اتجهت إلى إعادة قراءة التراث اللغويّ العربيّ الأصيل، والبحث في خفاياه، ليس انتصارا للقديم وتقديسا له، ولا هدمًا للحديث في ذاته، ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة الكبيرة المفاجئة التي أحدثها الخليل و"سيبويه"، وعلماؤنا الفطاحل في تاريخ علوم اللسان البشري بعد أن تحامل عليهم كثير من الدارسين المحدثين من العرب الذين تأثروا بالمناهج اللسانية الغربية الحديثة، ومن الغربيين والمستشرقين الحاقدين الذين نظروا إلى النحو والصرف العربيين بمنظار يهون من أعمال سلفنا العظيمة بدعوى "المعيارية"، وبدعوى بعدهما عن التصور العلميّ الدقيق والصحيح للغة، ومع ذلك يؤكد العلامة "عبد الرحمن الحاج صالح" أنّه لا يتعصب للتراث اللغويّ، وأنّه ينظر لهذا التراث نظرة موضوعيّة بعيدة عن العاطفة؛ تقف على نفس المسافة مع الدراسات الغربية الحديثة ، وعندما سئل: هل أنتم من المحافظين؟ فأجاب: "لست محافظا ولا مجدّدا، ولكن أبحث عن المفيد. اكتشفنا في القديم شيئا عظيما لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به"¹.

سعى عبد الرحمن الحاج صالح إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب، فتجاوز بذلك التقليد الأعمى والسليبي للدراسات التي نقلها عن الغرب، أو نقلها عن التراث العربي ، وبنى الأستاذ قراءته للتراث وتأسيس أفكاره علميا، بعيدا عن العاطفة على أساس أن التراث العربي لا يفسره إلا التراث العربي، فكتاب "سيبويه" على سبيل المثال لا يفسره إلا كتاب "سيبويه"؛ فلا نبحت عن تفسيره عند ابن مالك والنحاة المتأخرين، ولا بد من الرجوع إلى نحاة القرون الأولى والتراث الأصيل

كان "عبد الرحمن الحاج صالح" مهتما جدا بالتراث العلميّ اللغويّ الأصيل الذي خلفه أولئك العلماء العرب المبدعون الذين عايشوا الفصاحة اللغويّة الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وجمعوا اللّغة، ودوّنوها خدمة للنصّ القرآنيّ المقدّس الذي كان يحتاج إلى الفهم، والتفسير، والتعليل في ضوء اللّغة العربيّة النقيّة.

إنّ المتأمل في التراث اللغويّ العربيّ يشهد بوضوح اهتمام العلماء العرب القدامى في تحليلهم للظاهرة اللغويّة على مفاهيم ومبادئ لغويّة كان لها دور عظيم في تفسير العلاقات المعقّدة المجرّدة الكامنة وراء اللّغة، وكان لها أثرها في تطوير المفاهيم حول الظواهر اللغويّة؛ لأنّه « من الغريب جدّا أن تكون هذه الأعمال [اللغويّة] التي لا تضاهيها إلاّ ما أبدعه العلماء الغربيّون في أحدث أعمالهم، مجهولة تماما في كتبها، وجوهرها عند كثير من الدّارسين، والاختصاصيين المعاصرين»²

ومن هنا استقرّ عند الحاج صالح عظمة هذا التراث فحاول إحياءه والدّفاع عنه بكلّ ما أوتي من قوّة وظهر جليا في أعماله، فأعماله طافحة بالحديث عن التراث وخدمته والتّعريف به وبفضله، فاتّخذ من الاتجاه التوفيقي منهجا فعلم - وبكل صدق ومهنية - على التوفيق بين نتائج الفكر اللغويّ القديم والنّظريات اللّسانية الحديثة، وبالتالي إخراجها في حلّة جديدة تبيّن وتظهر قيمتها العلميّة والتاريخيّة والحضاريّة، وغايته في ذلك إبراز مكانة هذا التراث وعظمته من غير تعصّب ولا تعنّت للقديم، ومن غير انبهار وذوبان في الجديد متمثلا في اللّسانيات الغربيّة، فهو يعمل فقط على استرداد هذا التراث مكانته بحمله على المنظور الجديد دون تعسّف ولا غلو في محاولة لتأسيس الماضي والحاضر والمستقبل على أصول الماضي، وتأصيل البحث اللسانيّ المعاصر في الظاهرة اللغويّة العربيّة، فيصبح التراث كأنّه معاصرا لنا.

إنّ الرجوع إلى التراث، وإعادة النظر فيه يكشف عن إنتاج غزير يبعث على الإكبار والإجلال، و يبيّن مدى سبق العرب لكثير من النّظريات الغربيّة بألف عام أو أكثر، ومن هذا الاعتبار اعتمد عبد الرحمن الحاج صالح في نظره للتّراث على مبدئين، أولها الدفاع عن التراث وثانيها إعادة إحيائه من جديد.

-أولا: الدفاع عن التراث:

لا يخفي الدكتور الحاج صالح إعجابه الكبير بالنّحاة العرب القدماء الذين في مقدمتهم الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي و ابن جني . ويعتبر نفسه من المنتسبين إلى النظرية الخليليّة والمدافعين عنها ، فأولئك يتحرّون الدّقة العلميّة ولا يميلون في الوصول إلى الحقائق العلميّة إلى ما يمليه عليهم الهوى ، ولهذا نجده يبادر إلى الدفاع عنهم وتفنيده ما يقوله المستشرقون، وخير مثال على ذلك ردّه على جورج مونان، "ومونان هذا في تأريخه لعلم اللّسان لم يشر إلى مجهودات العرب إلا في أسطر قليلة، ولعلّ ذلك يعود إلى عدم معرفته باللّغة العربيّة، وحتّى من الدّارسين العرب يوجد من لم يتطرّق إلى الفترة العربيّة في التّاريخ لعلم اللّسان البشريّ أسوة بالغربيين الذين لا نظنّ أنّهم أغفلوا جهود العلماء العرب عفو الخاطر، ويأتي عبد الرحمن الحاج صالح ليفند ما أورده جورج مونان في تأريخه للّسانيات قبل القرن التاسع عشر"³ فيقول الحاج صالح: "ولا بد ههنا من تفنيد ما قاله مونان بأنّ النّحاة العرب كانوا يجعلون من اللّغة العربيّة أمّ اللّغات وإتّها لغة أهل الجنّة بل لغة الله"، أما القول الأوّل والثاني فما رأينا أحدا من النّحاة الأوّلين الحقيقيين المجتهدين يقوله أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرّخين والمفسّرين ممّن كان يجمع كل ما يسمعه بدون أيّ نقد مثل ابن إسحاق، فاعتمدوا الأساطير الفلكلوريّة التي كان يروّجها القصاص ... أمّا النّحاة و اللّغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الأشياء وقصارى ما قال البعض منهم هو (أنّ أوّل من فتح لسانه بالعربيّة المبينة إسماعيل) والمراد بالمبينة هي التي نزل بها القرآن، أما عربيّة

القبائل البائدة مثل جرهم فكانوا يقولون إنَّها عربية أخرى غير كلامنا هذا ... أما القول الثالث فهو شنيع، وأشنع من هذا أن ينسب إلى علماء العرب⁴

ثمّ يذكر بعد ذلك حججه الدامغة في تفنيد أقوال موانن فيقول: " فإنّ هذا لم يقله أحد من العلماء المسلمين ؛ لأنّته تجسيم محض . فإذا جاز للمسلم أن يقول عن القرآن إنّه كلام الله أي خطاب موجّه إلى البشر وأن يعتقد بالتالي أنّ فعل الكلام صفة لذات الله كسائر الصّفات التي يذكرها سبحانه وتعالى في كتابه العزيز فإنّنه لا يجوز أن يقول إنّ العربيّة أو الآرامية هي لغة الله لمجرّد نزول الوحي بهاتين اللغتين لأنّ اللغة في ذاتها وسواء قلنا إنّها من تواضع البشر أم من الله فهي آلة مسخرة للتبليغ ومن ثمّ خلقت لينتفع بها النّاس فإذا خاطب سبحانه النّاس بوساطة أنبيائه"⁵

وكذلك كان يكثر من الإشادة بجهودهم اللّغويّة " ورأى أنّ جلّ ما أثبتوه قد أقرّه العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم وأنّ نظرة الخليل وسيبويه إلى اللّسان هي أقرب إلى المفهوم العلميّ الحديث ، فيقول متحدثاً عن العلامة العدميّة : "هي عند العرب أصل مهمّ من أصولها المنهجية لا بالنسبة إلى اللّغة فقط بل بالنسبة إلى جميع العلوم الدقيقة والتجريبية، وهي مفهوم رياضيّ ونرجح أنّ الخليل هو أوّل من استخرجه من مفهوم الصفر بعد أن أدرك دوره في علم العدد فطبّقه على علوم العربيّة وبالخصوص النّحو والعروض"⁶

ورأى أن العرب لم يكتفوا في بناء أصول علومهم على استقرار النّصوص المكتوبة مثل القرآن الكريم بل تعدّوا ذلك إلى ما يمكن مشاهدته مباشرة مثل قراءات القرآن وإنشاد الشّعريّ الجاهليّ والشّعريّ الأمويّ وبالخصوص كلام فصحاء العرب ، وأنّ هذا ليس من الفيلولوجية الغربيّة التي تكتفي بدراسة النّصوص القديمة ، وما قام به العرب القدماء من دراسة للأحداث اللّغوية على ما هي عليه في زمان ظهورها هو ما يقوم به علماء اللسانيات اليوم لمعرفة أسرار اللّغات⁷

ومن شدة إعجابه بالتراث أنّه كان من أكثر اللّغويين العرب المحدثين انتصاراً لما قدمه النّحاة الأوائل وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي لا يفوت أيّ فرصة في مقال أو ملتقيات أو تظاهرة أو مؤلّف إلاّ ويدافع عنهم ويستغرب أن تكون هذه الأعمال التي لا تقل أهميّة عن أعمال أكبر العلماء المحدثين في العلوم الأخرى، مجهولة تماماً عند أكثر الناس بل ومجهولة تماماً في كتبها وجوهرها عند الكثير من الاختصاصيين المعاصرين⁸ حتى أنّ بعض الباحثين رماه بالتعصب للتّراث والتحيّز له .

-ثانياً: موقف الحاج صالح من الدراسات التي تناولت التراث :

ومن مظاهر دفاعه عن التّراث هاجم تلك الأعمال التي تناولته بالدّرس والتّحليل والتي رماها بالتّعصب للنّظريات الغربيّة وتجاهلها للمنتوج اللغويّ العربيّ وهذا ناتج - في رأيه - عن جهل وعن عقيدة فاسدة إذ يقول وهو يحدّد جملة من التّفائص في أعمالهم:

1-التبني دون سابق نظر لما جاءنا من الغرب من الأقوال والمذاهب اللّغوية :

بدعوى أنّ هذه الأقوال هي آخر ما توصّل إليه العلم الحديث ، وأنّ الباحثين العرب لم يبلغوا بعد - لقلّتهم وقرب عهدهم بالبحث- مستوى الاجتهاد، فإنّ الأفكار التي تصلنا من الغرب في اللّغة وظواهرها هي وليدة هذا العصر، ثمّ هي من جنس الأفكار التي تخصّ علوم الفيزياء والكيمياء، والأحياء، وغيرها من العلوم التجريبية التي تقدمت في أيامنا التقدم المعروف

2-التعصّب لمذهب غربيّ واحد :

لكون هذا الباحث قد تخرّج على يد ذلك العالم الغربي صاحب المذهب المعني به، فلا يريد به بديلاً ويعتقد أشدّ الاعتقاد أنّ كلّما يقوله غيره فهو من سفاسف الكلام وأباطيله

3-تجاهل بعض الباحثين للتراث العلميّ العربيّ في ميدان اللّغة:

وخصوصاً العرب دون غيرهم، وما أبدعوه من المفاهيم ولم يوجد ما يقابله في التّراث الفكريّ اليونانيّ واللاتينيّ ولا في المذاهب اللغويّة الحديثة. وهذا التّجاهل ناتج بالطبع عن جهل أوّلاً لجوهر المفاهيم والتّصورات العربيّة، وثانياً للاعتقاد الرّاسخ عند أكثر المحدثين أنّ ما ظهر عند العرب من الأفكار ولم يثبتته اللّغويون الغربيون لا قيمة علميّة له ويعتمدون في ذلك على ما يقوله فلاسفة العلوم، مثل أوجست كونت الفرنسي الذي ادّعى في القرن الماضي أنّ الفكر الإنسانيّ يتطور على خط مستقيم من الفكر الديني إلى الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر الإيجابي؛ أي العلميّ في نظره، فلا يتصور الباحث العربيّ أن يكون العرب منذ أكثر من ألف سنة قد وصلوا إلى ما توصّل إليه العلم الحديث⁹.

فهذه الردود القويّة وهذا الدفاع الشّرس عن التّراث لم يأت من فراغ أو تعصّب مقيت للموروث اللغويّ العربيّ؛ وإنّما ناتج عن استيعاب "التّراث العربيّ القديم وفهمه وتمثله وذلك من خلال القدرة على التعامل النّوعيّ مع النّصوص في مختلف مصادرها ومضامنها، ومعرفة سياقاتها وأحوالها وملابساتها الفكرية وتحليلها التّحليل العميق ومقارنتها بما توصّل إليه البحث عند علماء اللّسان الغربيين، وفهمه بعمق وروية وموضوعيّة فلم ينقطع عن التّراث، ويرى أنّ كلّ شيء جميل أو نموذج إنّما يكمن في الغرب، ولم يتفوق على نفسه في التّراث ويراها مخزناً يحفظ فيه كلّ النّماذج والأشياء القديمة، وإنّما مكنته معرفته العميقة بالتّراث اللسانيّ العربيّ، وإجادته اللّغات الأجنبيّة أن يقرأ بحكمة وتبصر، أن يقرأ بعينه لا بعيون الآخرين ويتحدّث بلسانه لا بألسنة الآخرين، ويطلّع على المعرفة اللسانية في أصولها سواء أكانت عربيّة أم غربيّة ويحلّل ويقارن ويقدم البراهين وهو واثق ممّا يقول .

ولقد أراد الدكتور الحاج صالح من دفاعه المستميت عن أصالة النحو العربيّ أن يبين أنّ التراث العلميّ اللغويّ ممّا أبدعه الأولون ثري بالأفكار الأصيلة والمناهج والتحليلات العميقة، وهي لا تقل قيمة عما جاءت به الدراسات الحديثة ، وذلك مثل المفاهيم العربية في الصوتيات فقد تبين له بالاختبار الاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة أن أغلبها صحيح... بل قد تفوت قيمة غيرها من المفاهيم¹⁰

والغريب أنّ الحاج صالح في حديثه عن الأصالة وتحديد حقيقتها كان الهدف منها الظاهر هو نصح الباحثين العرب بالوقوف ندّاً للدراسات اللغويّة الغربيّة؛ نحو الابتكار والإبداع والعلميّة وأن لا يقعوا فريسة للتقليد الأعمى، ولكن الهدف الحقيقي البعيد من حديثه عن الأصالة هو دفاعه عن التّراث والذّب عنه من هجمات المترصّين به الذين لا يتركون فرصة للحطّ من شأنه والتّشكيك في أصالته، وهذا إيماناً منه أنّه إذا كان الباحث

اللغوي أصيلاً وابتعد عن التقليد خاصة للغرب أو حتى القدامى من العرب، فإن عمله في النهاية يكون دقيقاً وموضوعياً في الحكم على الموروث اللغوي العربي وعلى الدراسات القديمة عموماً، وبالتالي لا ينساق وراء تلك المغالطات التي تمس أصالة النحو العربي.

وعلى العموم نجد أعمال ودراسات الحاج صالح أغلبها تنطلق من مبدأ الدفاع عن التراث والانتصار له وكشف كل الشبهات التي تثار حوله وهذا ظاهر وواضح لكل مهتم بفكر الدكتور .

ثالثاً: إحياء التراث اللغوي :

تعد جهود القدماء من علماء العرب في مجال البحث اللغوي أدق ما عرفته البشرية في عصورها القديمة متفوقين في ذلك على كل الأمم والحضارات العتيقة مجتمعة كاليونان والرومان والهنود والفرس وغيرهم، لا يوجد على الإطلاق من يجاري العرب في ذلك والدليل على هذا التراث اللغوي الزاخر الذي مازلنا نتحدث عن فضله إلى يومنا هذا ، وهو تراث يمتاز بالأصالة في التفكير والغزارة في الإنتاج والعمق في التحليل خاصة تلك التي نجدها عند الخليل وسيبويه وآراء عبد القاهر الجرجاني وغيرهم والتي بلغت من الدقة والعمق إلى درجة مقارنتها بآراء دي سوسير وتشومسكي وغيرهما.

ورغم غزارة المنتج اللغوي العربي القديم ومن تنوعه وعظمته، إلا هذا التراث الكبير تعرض للإقصاء والتهميش أثناء التأريخ لعلم اللغة، خاصة من الباحثين الغربيين وعلى رأسهم المستشرقين "ذلك أن اللسانيات بعصرنا الحاضر أشبه بطفرة وراثية يعود ظهورها إلى عامل الصدفة، إذ يجعل من ظهورها على هذه الشاكلة مع دوسوسير علماً مطموس المعالم بتاريخه المليء بالفجوات، وأكبرها تلك الفجوة المنسوجة شباكها حول التراث اللغوي العربي. ومع أن محاولات كثيرة تسعى إلى إثبات استمرارية التفكير اللساني الحديث، فإنها لم تنصف هي الأخرى جهود العرب في المجال اللغوي، رغم إدراكها مدى عظمة هذه الجهود. يكفي أن ننظر في كتاب جورج مونان " Georges Mounin " تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين"، حتى نستشف ذلك التهميش الكبير الذي مس التراث اللغوي العربي؛ إذ يكتفي وسط حديثه عن أعمال الرومان واليونان والفراعنة والهنود بإقحام عبارة بسيطة قصيرة يشير فيها إلى أهمية الدرس الصوتي العربي، فيقول: «كذلك يستحيل علينا أن نؤكد أن نتجاهل علم الصوت عند العرب، فندرس أولاً أصوله ثم انتشاره في الثقافة العبرانية إلى ما بعد القرن السادس عشر. وما أحدثه من أثر في الغرب من ناحية التفكير الصوتي».¹¹ فضلاً عن هذا، فإننا نسجل بعض الاعترافات المهمة بتميز الدرس اللغوي العربي، إذ يقول العالم اللغوي المستشرق برجشتراسر عن تفوق العلماء في مجال الدراسات الصوتية أنه "لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان: العرب والهنود"، كما يقول اللغوي الإنجليزي فيرث لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين: العربية والسانسكريتية"¹²

ورغم أهمية هذه الآراء، فإن اللسانيات الحديثة بنت صرحها من دون العودة إلى جواهرها ومحاولة الاستفادة منها، علماً أنّها لو فعلت لحققت نتائج أكثر تقدماً، ولربما كانت على غير ما هي عليه الآن¹³ " وإذا جاز لنا أن نبسط مصادرةً في البحث أمكننا أن نقرر افتراضاً أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات

العامّة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة، لكانت اللسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلّها تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد¹⁴

لقد تعدّدت أسباب تغييب التراث اللغوي العربي عن اهتمامات الدراسات التاريخية للفكر اللغوي العام، ولعلّ أهمّها وأكثرها حضوراً وتأثيراً، ارتباط التراث اللغوي العربي ارتباطاً وثيقاً بالصراع العقديّ والحضاريّ بين المشرق العربيّ الإسلاميّ والغرب الأوروبيّ المسيحي¹⁵

لقد عملت هذه المواقف مجتمعة على دفع المثقفين والنهضويين العرب إلى تكثيف المساعي والجهود لبناء قومية عربيّة تتصدى للآخر وتحقق وجودها واستقلاليتها، ولعلّ هذا الهدف بقي مسيطراً على من جاء بعدهم من جيل الشّباب من اللسانيين العرب، حيث دفعهم الهدف ذاته، بشكل شعوريّ أو لا شعوريّ، إلى محاولة إثبات تأصلّ الذات العربيّة، فكان طريق العودة للتراث اللغويّ ووضعها بمقابل هذا العلم اللغويّ الغربيّ لحديث الوافد، والعمل على محاورته وإثبات قضاياها وإعادة قراءته بمفاتيح اللسانيات الحديثة أقصر طريق وأسرعها لتحقيق ذلك¹⁶، فهذا العامل النفسيّ الملح دفع بالكثير من الباحثين للرجوع للتّراث لإثبات جدارته كرد فعل على التهميش والتغييب الذي تعرّض له وهذا ما كان جلياً وواضحاً في أعمال عبد الرحمن الحاج صالح فقد بنى فكره اللساني على التراث اللغوي العربي القديم، فكان منبراً بجهود علمائنا الأفاضل أمثال الخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني، وما تركوه من إرث لغويّ نير.

عكف الحاج صالح على التّراث اللغويّ قراءة وتحليلاً فسخر كل جهده لبعث هذا التراث والتعريف به في كل فرصة أتاحت له في المحاضرات والملتقيات والمجالات والمؤلفات وغيرها فكان همه إثبات للعالم أنّ للعرب إرثاً لغويّاً لسانياً عظيماً لا يمكن للباحثين شرقاً وغرباً اختزاله أو إغفاله أو الاستهانة به ليؤكد أنّ الدراسات العربيّة القديمة ونتائجها لا تقل شأنًا عما جاءت به الدراسات اللسانية الحديثة لا يمكن تغييبها، فحمل على عاتقه تبين ذلك وشرحه فأجرى مقارنات وحوارات علميّة طويلة مع التوليديين والوصفيين والتوزيعيين وغيرهم. فظهرت له عدّة أعمال حاول من خلالها إحياء التّراث وإعادة بعثه نذكر منها الدراسات النحوية وعلم المصطلح فقط كعينة وهي كالآتي:

1- الدراسات النحوية:

حاول الحاج صالح أن يثبت للباحثين واللّسانيين أن علماء اللّغة العرب الأوائل أمثال الخليل وسيبويه وغيرهم أعمالهم وأفكارهم تشكل نظريّة لغويّة لم يعرف مثلها في القديم والحديث وهي ما أطلق عليها النظرية الخليليّة الحديثة والتي أراد منها الرجوع بنا للتّراث وإعادة قراءته وإعادة إحيائه لبناء نظريّة لغويّة عربيّة من فكر الأوائل يقول الدّكتور الحاج صالح: «لا بدّ من الرجوع إلى التّراث العلميّ العربيّ الأصيل... والنظر فيما تركه أولئك العلماء الفطاحل الذين عاشوا في الصدر الأوّل من الإسلام حتّى القرن الرابع الهجري، وتفهم ما قالوه وأثبتوه من الحقائق العلميّة التي قلما توصل إلى مثلها من جاء قبلهم من علماء الهند واليونان، ومن بعدهم كعلماء اللّسانيّات الحديثة في الغرب»¹⁷.

إذن فالهدف الصريح من النظرية الخليلية الحديثة هو الرجوع للتراث اللغوي العربي ، وإعادة بعثه من مصدره الأصيل من الرعيل الأول من القرون الأولى حتى القرن الرابع .

2- علم المصطلح:

أظهر الحاج صالح إعجابا كبيرا بالمصطلحات اللغوية التي وضعها الخليل ومن جاء بعده وسار على منهجه، إذ أظهروا دقة كبيرة من ذلك المصطلحات التي وضعوها في وصف الحروف وتحديد مخارجها، يقول الدكتور مهدي المخزومي: " ومن الطريف حقًا أن نرى مصطلحات علم الأصوات الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التي وضعها الخليل، وهي قريبة منها كلّ القرب، بل كان كثير منها يشير إلى أنها مصطلحات الخليل ترجمت ترجمة تكاد تكون حرفية:

فمصطلح (المجهور) يقابله بالإنكليزية مثلا مصطلح voiced

ومصطلح (المهموس) يقابله مصطلح Unvoiced أو Voiceless

ومصطلح (الشديد) يقابله مصطلح Plosive أو Stop

ومصطلح (الرخو) يقابله مصطلح Fricative أو Continuant

ومصطلح (المكرر) وهو الرء يقابله مصطلح Trilled أو Rolled¹⁸

هذا ما جعل الحاج صالح يثق في هذه المصطلحات ويفضلها على التي ظهرت عند الغرب في العصر الحديث ، كمصطلح (علم اللسان) فالعرب حين اتصلوا بالدراسات اللغوية الغربية أطلقوا عليها أول الأمر فقه اللغة» لما تبادر إلى أذهانهم من المناسبة بين المدلول لكلمة «فقه» العلم بالشيء و التعمق في فهمه، و بين ما هو مطلوب في اللسانيات، اللسانيات، اللغويات الحديثة، الدراسات اللغوية¹⁹ ، وفضل كلمة اللسان على لفظة (اللغة) لأن لفظة اللغة كانت تطلق عند النحاة و اللغويين على عدّة معان، زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها و هو اللسان بوجه عام²⁰

ومن تبنيه لمصطلحاتهم أيضا أنه اختار مصطلح البنوية المنسوب إلى (البنية) وفضله على كلمة (بنوية)

الشائعة عند اللغويين العرب المحدثين، لوصف مناهج المدارس الملقبة بـ "Structuralisme" ووضح سبب

اختياره لهذه اللفظة بقوله: «اتبعنا في هذه النسبة رأي يونس بن حبيب النحوي الذي يقول في ظبية ظبوي وهو

أخف من ظبوي ، ووجهه الخليل «²¹ كلّ هذا يبين موقف الحاج صالح الإحيائي .

خاتمة :

بعد أن وقفت على جهود عبد الرحمن الحاج صالح التي تميزت بإعادة قراءة التراث اللغوي العربي، إذ حاول

إلقاء الضوء على مدى التوافق بين التراث اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة، و لم يقصد بهذه القراءة إسقاط

المناهج أو النظريات اللسانية المعاصرة على تراثنا اللغوي، بل إثبات المفاهيم والتصورات العلمية في التراث العربي، فضلا عن المناهج التحليلية عند أقدم النحاة العرب، والتي لا تقل أهمية عما أثبتته اللسانيات المعاصرة، ومن أجل هؤلاء اللغويين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، سيبويه، وأبو علي الفارسي، وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، فتراثنا لا يخلو من التحليلات والملاحظات الجديرة بأن تعاد قراءتها عن طريق ربطها بمناهج البحث اللغوي المعاصر، ولعلنا في هذا الإطار إطار الاتجاه التوافقي بين القدماء والمحدثين نجد تجربة الحاج صالح تجربة مميزة، كونها توضح وتظهر الأسس التي تقوم عليها الدراسات القديمة، فقد أدرك الحاج صالح جوانب النظرية المهمة لدراسة اللغة العربية على وفق النظريات اللسانية القديمة، مما جعل أعماله أكثر وضوحا ودقة وسهولة بالنسبة للدرس اللساني.

على الرغم من غزارة المنتوج اللغوي العربي وتنوعه إلا أنه تعرّض لنوع من التهميش والإقصاء خاصة أولئك الغربيين والمستشرقين، فلقد كانت أبحاثهم اللسانية قاصرة ومجحفة في حق تراثنا اللغوي، فهي لم تنصف جهود العرب في المجال اللغوي، رغم إدراكها مدى عظمة هذه الجهود، إذ تحدثوا وأفاضوا الكلام في أعمال الرومان واليونان والفراعنة والهنود، متناسين الأبحاث العربية باستثناء تلك الإشارات العابرة والسريعة إلى أهمية الدرس الصوتي العربي، هذا ومن باب الإنصاف لا نعدم بعض الاعترافات المهمة بتميز الدرس اللغوي العربي من بعض المنصفين الغربيين، الذين رأوا في العرب نضجا بحثيا وفكرا لغويا عميقا، تناول اللغة من كل جوانبها، فلم يقتصروا في ذلك على الجانب الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي فحسب، بل تناولوها باعتبارها ظاهرة إنسانية فريدة فحللوها وفسروها بشكل لا يضاھيه إلا ما أورده الأبحاث اللسانية الحديثة، ويكفي الرجوع إلى كتب الفلسفة والمنطق والدين والأصول.

للأسف لقد بنت اللسانيات المعاصرة آراءها وبنت صرحها من دون العودة إلى جوهر اللسانيات العربية أو محاولة للاستفادة منها، ولو فعلت اللسانيات الغربية ذلك لحققت نتائج كبيرة ولحدث فيها طفرة كبيرة، ربما غيرت فيها الكثير وربما كانت على غير الوجه الذي هي عليه الآن.

لذا على الباحثين العرب تكثيف المساعي والجهود لإثبات تأصل الذات العربية بالرجوع إلى التراث اللغوي ووضعها مقابل العلم اللغوي الغربي، والعمل على محاورته، وإثبات تصورات اللسانية وإعادة قراءتها بمفاتيح علم اللسان الحديث، فهذا الطريق الأسرع والأقصر والأنجع لتحقيق ذلك.

هوامش وإحالات المقال

- 1 ينظر: عادل بوديار، النظرية الخليلية الحديثة عند عبد الرحمن الحاج صالح، موقع شبكة ضياء. <http://diae.net/45160>.
- 2 عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، ج 1، 2007م، ص 208.
- 3 ينظر: بشير إبرير، (أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية). جامعة بسكرة، العدد السابع، 2005م، ص 25.
- 4 عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد الثاني، العدد الأول، جامعة الجزائر، 1971، ص 5 و 6، هامش رقم 1.
- 5 نفسه ص 5 و 6، هامش رقم 1.
- 6 نفسه، ص 55.
- 7 ينظر: منصور ميلود، (الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من خلال مجلة اللسانيات)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثامن، سبتمبر 2005م ص: 155.

8. عبد الرحمن الحاج صالح المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية، ضمن كتاب: تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، بيروت، ط1979، م1، ص3
- 9 ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة، ضمن كتاب بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص: 12-14.
- 10 ينظر: المرجع نفسه، ص148.
- 11 جورج موان: تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة: بدر الدين القاسم، سلسلة الكتب العلمية، دمشق، 1972، ص206.
- 12 ينظر: حسام الهنساوي: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دط، 1994، ص04.
- 13 ينظر: هبة خياري، (المرجعيات الفكرية في الخطاب اللساني العربي المعاصر)، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة باجي مختار، مجلد 23- عدد 52-ديسمبر 2017م ص 74.
- ينظر: عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981م. ص 14 23
- 15 ينظر: هبة خياري، المرجع السابق، ص75.
- 16 ينظر: نفسه، ص74.
- 17 عبد الرحمان الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، ندوة اتحاد الجامعات العربية، جامعة الجزائر، 1984، ص1.
- 18 مهدي المخزومي، عبقرى من البصرة، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان – الطبعة الثانية، 1406هـ-1986م، ص 16
- 19 ينظر: تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. نحو. فقه لغة. بلاغة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982 ص2
- 20 ينظر: منصورى ميلود، الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ص157.
- 21 عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، ص38.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1-بشير إبرير، أصالة الخطاب في اللسانيات الخليلية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، العدد السابع، 2005م.
- 2-تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. نحو. فقه لغة. بلاغة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982م.
- 3-جورج موان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة بدر الدين القاسم، سلسلة الكتب العلمية، دمشق، 1972م.
- 4-حسام الهنساوي: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
- 5-عادل بوديار، النظرية الخليلية الحديثة عند عبد الرحمن الحاج صالح، موقع شبكة ضياء، <http://diae.net/45160>
- 6-عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، ندوة اتحاد الجامعات العربية، جامعة الجزائر، 1984م
- 7-عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، ج 1، 2007م.
- 8-عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد الثاني، العدد الأول، جامعة الجزائر، 1971م.
- 9-عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ضمن كتاب: تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1979م،
- 10-عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، المجلد الثاني العدد الأول جامعة الجزائر، 1979م.
- 11-عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981م.
- 12-منصورى ميلود، الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من خلال مجلة اللسانيات، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الثامن، سبتمبر 2005م.
- 13-مهدي المخزومي، عبقرى من البصرة، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان – الطبعة الثانية، 1406هـ-1986م.
- 14-هبة خياري، المرجعيات الفكرية في الخطاب اللساني العربي المعاصر، مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة باجي مختار، مجلد 23- عدد 52-ديسمبر 2017م